الدكتور محمد درى باشا

حكيم أنشأ مطبعة للكتب الطبية

هذا الرجل من المشاهير لأنه يملك باسمه شارعًا فى حى العجوزة بالجيزة .. وقد أصبحت اللافتات الزرقاء التى تحمل أسماء الشوارع تذكرنا بعظماء مصر.

وكانت الحملة الفرنسية هى التى وضعت لافتات زرقاء فى القاهرة ، ولكنها لم تكن تحمل أسماء الشوارع ، بل إن الفرنسيين وضعوها لتنظيم مواقف الحمير التى كانت وسيلة المواصلات الوحيدة داخل المدينة الكبيرة ، وكان كل موقف يحدد عدد الحمير التى تقف فيه ، ويكتب ذلك على لافتة زرقاء مثل :

– موقف لأجل ٣ حمير.

وقد شاهدت بعض هذه اللافتات الزرقاء فى بعض الأماكن منذ خمسين سنة عندما كنت صبيًا ، ولاحظت فيها أخطاء إملائية ، وخطأ عربيا كتبه أحد المستشرقين ممن يرسمون الحروف رسما .

المهم هو أن القاهرة عرفت اللافتات الزرقاء من حملة بونابرت ، وعندما قام محمد على بتنمير البيوت أى وضع أرقام لها ، استخدم نفس الطريقة ، ومازالت اللافتات التى تحمل أرقام البيوت وأسماء الشوارع والحوارى والأزقة والدروب زرقاء ، ويبدو أن الفرنسيين هم الذين قاموا بهذه الأعمال لأن دولة محمد على كانت شديدة الاتصال بفرنسا وثقافتها وحضارتها .

كل هذا الكلام دفعنا إليه الدكتور محمد درى باشا الذى أطلق اسمه على شارع فى العجوزة .

وأنا أضحك كلما قرأت فى الصحف أن الذين يملكون إصدار شهادات الميلاد الجديدة بأسماء الشوارع يرفعون لافتة زرقاء باسم من الأسماء ثم يضعون لافتةً أخرى باسم آخر على طريقة ملوك الفراعنة فى محو أسماء أسلافهم ونقش أسمائهم على المسلات أو جدران المعابد ، وكانوا يعتقدون أن هذا يخلد أسماءهم .

ولكن ما ذنب الدكتور محمد درى باشا فى كل هذه المناقشة ؟

أقول لك إن شهرة الشوارع ليس معناها التعريف بمن تحمل لافتاتها الزرقاء أسماءهم من مشاهير الرجال .

كان الشاعر الشهير شيللر قد سكن فى بيت صغير بمدينته (لايبزيج) الألمانية الشرقية ، داخل حارة ضيقة ، واستهوانى زيارة هذا البيت الذى كتب فيه الشاعر قصيدة السعادة التى أصبحت السيمفونية الخامسة لبيتهوفن ، وظللنا نبحث عن هذا البيت الصغير أكثر من ساعة ، حتى أطلت علينا سيدة من نافذة وسألتنا عما نبحث ؟ وقلنا لها : بيت شيللر ، وقالت لنا : فى هذه الحارة .. واسم شيللر مكتوب على جدار فى الحارة .

هذا الشاعر الكبير لم يطلق اسمه على الشارع الكبير ، ولكن على الحارة الصغيرة ، ولم يستطع أحد استبدال اسم الشارع واسمه : شارع الشعراء .

كل الناس فى هذا الحى يعرفون شيللر ، ويقرءون شعره ، ويحفظون بعضه منذ كانوا تلاميذ فى المدارس .

ولكن الذين يسكنون فى شارع درى لا يعرفون من هو الدكتور محمد درى ؟ .. هذه هى المشكلة التى جعلتنا نتناقش حول أمور لا دخل للرجل فيها .

ولد محمد درّى فى قرية (محلة أبو على) وهى إحدى القرى القريبة من طنطا سنة ١٨٤١ ، وتلقى التعليم الابتدائى والثانوى ثم ألحق بمدرسة المهندسخانة عندما كان ناظرها على باشا مبارك .. ولكن هذا الشاب كان متعلقًا بدراسة الطب لا الهندسة ، فطلب من أستاذه معاونته على الالتحاق بمدرسة الطب .

ويبدو أن على مبارك ظل يحاوره ليعرف منه أسباب تركه لمدرسة المهندسخانة ، وهى أعظم أمنيات شاب مثله ، وأراد الباشا أن يعرف أيضًا وهو المهندس العظيم لماذا يترك شاب مثل محمد درى مدرسة المهندسخانة ويذهب إلى مدرسة الطب ؟ .

واقتنع على مبارك بوجهة نظر الشاب الناشئ محمد درى ، وساعده فى الالتحاق بمدرسة الطب ، حتى يحقق رغباته الحقيقية وميوله الطبيعية ، وحفظ محمد درى هذا الجميل لعلى باشا مبارك ، فأصدر بعد سنوات كتابًا عن تاريخ هذا الرجل العظيم وطبعه فى مطبعته التى أنشأها ، فى حارة السقايين بعابدين ، وسماها (المطبعة الدرية لطباعة الكتب الطبية) ، ولم تطبع هذه المطابع كتابًا فى علم أو فن غير الطب سوى هذا الكتاب الفريد عن حياة على مبارك .

بدأ محمد درى دراسة الطب ونجح فى الامتحان السنوى ، ولكن حدثت مفاجأة مذهلة قاتلة ، فقد ألغى الوالى سعيد باشا مدرسة الطب وأمر بإلحاق طلابها بالجيش ، ووجد الشاب هاوى الدراسة الطبية نفسه جنديًّا فى إحدى الأورط العسكرية فى الجيش .

فقد مدرسة المهندسخانة والطب معًا وأوشكت آماله أن تتبدد .

ولم ييأس هذا الشاب الطموح ، واستمر يدرس الطب فى الكتب التى تصل إلى يده وألحت عليه رغباته فطلب من رؤسائه أن يعيَّن ممرضًا فى الجيش .

ثم أصبح طالب الطب ممرضًا ، ولم يفهم الأطباء الذين كان يعمل معهم لماذا اختار هذه المهنة ؟ .. وكانت معرفته بالطب تلفت النظر فهو ممرض ممتاز ، ولديه معارف طبية واسعة فاعتقد أطباء الجيش أنها مهارة أو شطارة ، ولم يدركوا أنه كان يتعلم منهم الصنعة بعد أن أغلقت مدرسته .

ولكن الذى حدث هو أن سعيد باشا أعاد فتح مدرسة الطب ، فعاد إليها محمد درى ، وأتم دراسته بنجاح باهر ونبوغ ظاهر ، فعين معيدًا للجراحة فى المدرسة ، وبدأ نجمه فى الصعود .

ثم حدث الرضى من الوالى سعيد باشا ، فقرر إرسال بعثة من أساتذة الطب إلى فرنسا للتزوّد بأحدث ما وصلت إليه باريس فى العلوم الطبية ، وكان الدكتور محمد درّى أصغر أعضاء هذه البعثة سنا وأنبغهم وأكثرهم علمًا .

وعاد الأطباء إلى مصر فى أوائل عهد إسماعيل ليعملوا فى مستشفيات الحكومة ، وبقى الدكتور محمد درى فى باريس بسبب صغر سنه ، وكان الخديوى إسماعيل هو الذى لاحظ هذه الملاحظ عندما عرض عليه كشف بأسماء أعضاء هذه البعثة العلمية التى ضمت ستةً من الأطباء كانوا يحملون رتبة البكوية ، وقد بلغ سن بعضهم ما يقرب من خمسين سنة ، فأعادهم جميعًا من البعثة التى سافروا إليها للنزهة لا للعلم .

أدرك إسماعيل بذكائه اللماح أن هؤلاء الأطباء ضحكوا على عمه سعيد ، ولكنه استثنى المعيد الشاب الدكتور محمد درى وتركه يدرس فى باريس بعد أن عرف كل ظروفه وأحواله ، وبقى الشاب الغالم فى باريس نحو سبع سنوات ، وأتم دراسته على أشهر الجراحين ، ونبغ فى الجراحة نبوغًا فائقًا فذًّا .

وعندما كان الخديوى إسماعيل فى زيارة لباريس التقى به الدكتور محمد درى ، فعطف عليه وشمله برعايته بعد أن سمع من أساتذته الاعتراف بنبوغه ومهارته .

وكان من خصائص إسماعيل برغم كل نقائصه الذكاء والفراسة والقدرة على معرفة الأشخاص ، ولم يكن حاكمًا جاهلاً ولكنه كان صاحب نزوات طائشة أطاحت به وبملكه ، وكثيرون لا يعرفون أنه كان مهندسًا بارعًا وقد درس دراسات عالية فى فيينا وباريس وفهم حضارة أوربا فهمًا واعيًا عميقًا . ولكن نزواته ضيعت ملكه .

أدرك الخديوى أن هذا الشاب المصرى الفلاح المولود فى (محلة أبو على) وابن السيد عبد الرحمن أحمد أحد فلاحى هذه القرية ، سيكون له شأن عظيم .

وعاد الدكتور محمد درّى من باريس لشغل منصب كبير الجراحين فى مستشفى قصر العينى والأستاذ الأول للجراحة بمدرسة الطب .

كان مثل النجم الثاقب .. وانهالت عليه الرتب والألقاب حتى نال رتبة الباشوية ، وأصبح نجم الجراحة فى مصر ، وذاعت شهرته فى أرجاء البلاد من أسوان إلى الإسكندرية .

بلغ الدكتور درى ذروة الشهرة بما عرف عنه من النبوغ فى فنه . والمهارة فى إجراء العمليات الجراحية الدقيقة والخطيرة والدقة فى تشخيص الداء ووصف الدواء .

وكان قصر العينى ومازال من أهم المراكز العالمية فى الجراحة على وجه الخصوص وقد نال هذه الشهرة بسبب هؤلاء العباقرة من أمثال الدكتور درى والدكتور محمد على البقلى باشا والدكتور على باشا إبراهيم وغيرهم ممن ذاعت أسماؤهم فى أنحاء العالم ، وعرفتهم كليات الطب فى أرجاء الدنيا أساتذةً لا يشق لهم غبار .

أصبح الشاب الذى اشتغل ممرضًا فى الجيش المصرى من أشهر الجراحين ، وقد اعترف له أساتذته فى باريس بهذه المهارة والعبقرية .

ولكن .. هل فى قصر العينى سر من الأسرار ؟

إننى كلما عدت لمراجعة تاريخ مدرسة طب قصر العينى بين سطور الكتب والمراجع أحس بأن شيئًا غامضًا يضمه هذا البناء الذى نجدده فى أيامنا ، ويخيل إلى أنه يعيش فى طقوس فرعونية قديمة عمرها سبعة آلاف سنة .

وحتى هذه اللحظة يفاخر الأطباء بكتابة أسمائهم على اللافتات مقرونةً بوظائفهم فى قصر العينى ؛ لأن هذه الوظائف هى التعبير الصادق عن الثقة والمهارة .

والشيء الذى يلفت النظر هو أن مدرسة طب قصر العينى كان لها هذا الدور الضخم فى بناء الحضارة المصرية الحديثة ، ومازالت تمارس هذا الدور بنفسها أو عن طريق بناتها كليات الطب فى مختلف الجامعات ، حتى أن الطبيب المصرى فى لندن أصبح فى أيامنا يتفوق على الطبيب الإنجليزى .

يا أخى .. هذا الرجل محمد درى باشا الحكيم يجرنا دائمًا إلى مناقشةالقضايا ويبدو أنه كان فيلسوفًا محبا للمناقشة ؛ لأنه كان متعلقًا بالعلم والتأليف .

لقد عرف عنه أنه كان يقتنى مكتبةً علمية نفيسة ، اشتهرت فى عصره ، وكان يرجع إليها زملاؤه ، فهو ليس من كبار الجراحين فحسب . ولكنه من كبار العلماء أيضًا . وكانت مكتبته الطبية من أهم المراجع العلمية فى مصر ، ثم ذهبت أدراج الرياح كما ذهبت مكتبات عظماء الرجال فى بلادنا ، ومازال بعض الكتاب ينادون ويصيحون ويطالبون بأن تسعى دار الكتب القومية إلى اقتناء هذه المكتبات .. ولكن من يقرأ ومن يسمع كما كان يقول أستاذنا أحمد أمين .

ومن أهم مقتنيات الدكتور محمد درى التى تحدث عنها زملاؤه من كبار الأطباء مجموعته التشريحية التى وصفت بأنها لم يكن لها مثيل حتى فى كليات الطب العالمية .

لم يكن هذا الأستاذ العظيم كبير الجراحين وكبير أساتذة الجراحة فى قصر العينى فحسب ولكنه كانت له قضية أساسية فى حياته العلمية .

بأى لغة يدرس الطب فى قصر العينى ؟

لقد كانت دراسته بالفرنسية ، وكانت نشأة مدرسة الطب منذ أيام كلوت بك فرنسية وكانوا يحضرون التراجمة لترجمة المحاضرات للطلاب الذين يدرسون الطب ، كما كان هناك فريق آخر يتعلم الفرنسية ليدرس هذا العلم .

وكان الدكتور درى باشا لا ينظر إلى مشكلة اللغة ؛ لأنه قرر تدريس الطب باللغة العربية ورأى أن هذا لا يمنع إطلاقًا من مراجعة كتب الطب بأى لغة من لغات الدنيا ، ولا يمنع من الاطلاع على أحدث ما وصل إليه الطب فى العالم . ولم تكن هذه نظرة الدكتور درى باشا وحده ، ولكنها نظرة كل زملائه من أساتذة الطب .

بل إن هذا هو ما حدث فى كل العلوم الحديثة ، فقد كان على باشا مبارك ناظر المهندسخانة يدرس العلوم الهندسية والرياضية باللغة العربية .

وفى هذا العصر حدث التقدم الحضارى العظيم فى مصر ، ولم تكن تستورد الخبراء الأجانب فى الصناعة والزراعة كما نفعل نحن الآن ؛ لأنها كانت تملك الخبراء الذين تعلموا أحدث العلوم فى أوربا ، وكانت كل المصانع التى أنشئت فى عصر محمد على وإسماعيل يشرف عليها مصريون .. وكان علماء مصر فوق قمة المجتمع الحضارى الجديد .

وكانت قضية الدكتور محمد درى هى تدريس الطب باللغة العربية .

ولكن . . أين كتب الطب التى يدرسها الطلاب ؟

المشكلة سهلة وبسيطة ويسيرة .

أنشأ الدكتور درى باشا مطبعته المتخصصة وسماها (المطبعة الدرية لطباعة الكتب الطبية) وجعل مقرها فى حارة السقايين ، ودارت آلات الطباعة لتقدم لمدرسة الطب كتبه وكتب زملائه .

طبع كتابه الضخم (بلوغ المرام فى جراحة الأجسام) فى أربعة مجلدات . . ثم طبع كتابه (الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية) . . وغير ذلك من مؤلفاته التى كانت تدرس فى قصر العينى .

وقامت المطبعة الدرية بالدور الرائد العظيم فى طبع كتب أساتذة الطب الكبار ، ولم تكن تستورد كتابًا واحدًا فى العلوم الطبية من أوربا وكان طلبة الطب يجدون بين أيديهم كل الكتب التى يدرسونها بغير مشقة أو عناء .

إن هذا الرجل وأمثاله من عظماء مصر يجب علينا أن نتعلم من تجاربهم حتى نستطيع إعادة بناء مصر .

قام بمفرده بإنشاء أضخم مكتبة طبية فى داره لتكون مرجعًا لكل من يريد المزيد من العلم .

أنشأ بمفرده مطبعةً خاصةً لطباعة الكتب الطبية . وطبع فيها عشرات الكتب والمجلدات .

أنفق أمواله ولم يحسب حساب الأرباح والخسائر فى أعماله العظيمة التى قام بها لوجه الله لا يطلب من أحد جزاءً ولا شكرًا .

كل هذه الأعمال قام بها رجل واحد انتهت رحلته فى سنة ١٩٠٠ . . وبقى منه شارع يحمل اسمه فى حى العجوزة . . هو شارع الدرى .

الدكتور محمد على البقلى باشا

طبيب عيادته أهم من «قصر العينى»

قد لا تصدق أن المرضى قد هجروا مستشفى قصر العينى وذهبوا إلى عيادة الدكتور محمد على البقلى طبيب قسم قيسون فى قلب القاهرة بعد أن أخرجه الوالى المجنون عباس باشا الأوّل من وظيفة مدرس فى مدرسة الطب إلى وظيفة حكيم قسم من أقسام القاهرة .

عباس باشا الأوّل هو الذى جعل الأستاذ الأكبر رفاعة بك ناظر مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ، وجعل محمد بيومى العبقرى الموهوب الذى استدعته جامعة باريس لتدريس العلوم الرياضية ، مدرسًا للحساب فى الخرطوم مع زميله رفاعة بك ، ثم انتهت حياة بيومى أفندى بضربة شمس أو بضربة طغيان واستبداد وفساد .

مات محمد بيومى فى الخرطوم حزنًا وأسفًا وأسى .

ولكن الذى حدث مع هؤلاء المثقفين العظماء ، ومع أطباء الطب البيطرى الذين ألبسهم عباس باشا الأوّل الزعابيط وجعلهم حفاةً بعد موت حصانه الأحمرانى الذى عجزوا عن علاجه ، لم يستطع أن يفعله مع الدكتور محمد على البقلى كبير الجراحين فى مدرسة الطب ، فأمر بنقله ليصبح طبيب قسم قيسون .

لم يغضب الدكتور البقلى ، ولكنه افتتح لنفسه عيادةً يعالج فيها الأغنياء بالفلوس ، ويعالج الفقراء بالمجان ، وقد يأخذ من أموال الأغنياء ليعطيها للفقراء ثمنًا لدواء أو غذاء أوكساء . . وكل شىء بثوابه كما يقول المثل الشعبى المصرى .

وأصبحت عيادة الدكتور البقلى أهم من قصر العينى ، وقل الوارد على مستشفى القصر العينى كما يقول على باشا مبارك ، وجلس الأطباء الأجانب ينتظرون مريضًا واحدًا يسمح لهم بعلاجه ولكن المرضى كانوا يذهبون إلى الدكتور البقلى .

هل هذا الطبيب المصرى العبقرى أهم من كل هؤلاء الأطباء الأجانب ومن معهم من المصريين ؟

هذا هو التحدى .

يأخذ من الأغنياء ويعطى الفقراء وكلهم سعداء .

ولد هذا العظيم فى زاوية البقلى مركز منوف سنة ١٨١٥ ابنًا لأسرة مرموقة فى قريته وتعلم فى الكتاب بالطريقة المعتادة فحفظ بعض سور القرآن الكريم وأتقن القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، وفى التاسعة من عمره أدخله أحمد أفندى البقلى مدرسة أبو زعبل حتى نال شهادة التجهيزية وعمره خمسة عشر عاما وكان أول فرقته ، فالتحق بمدرسة الطب عندما كان ناظرها الدكتور كلوت بك ، وظهرت عليه مخايل الذكاء واشتهر بالنبوغ والتفوق وتوقد القريحة ، فلما أتم دراسته اختاره كلوت بك فى البعثة التى أرسلت إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة باريس ، وكان مرتبه فى البعثة ١٥٠ قرشاً ، فترك لوالدته خمسين قرشًا ، واكتفى لنفسه بمائة قرش .

وبعد أن أتم دراسته فى جامعة باريس ، أعد رسالة الدكتوراه وكان موضوعها (الرمد الصديدى المصرى) . . ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٣٨ وعين مدرسًا للجراحة والتشريح فى مدرسة الطب ، وكبيرًا للجراحين فى مستشفى قصر العينى .

وأصبح الطبيب الشاب ابن الثلاثة والعشرين عامًا أشهر الأطباء والجراحين فى مصر ، وتعرض للأحقاد والحسد وخاصةً من الأطباء الأوربيين الذين لم يستطيعوا الوقوف أمام عبقريته ونبوغه فاستخدموا ضده سلاح الوشاية والنميمة ، حتى أبعده عباس باشا الأول من مدرسة الطب ومن قصر العينى ، وظلت شهرته فى اتساع ، وذكره على كل لسان فى أرجاء مصر .

ظل الدكتور البقلى خمس سنوات يعمل فى عيادته ، حتى عينه سعيد باشا والى مصر الذى حكم بعد عباس الأول ، كبيرًا لأطباء الجيش ، ثم عاد لمنصبه كبير جراحى مستشفى قصر العينى . وعين وكيلاً لمدرسة الطب ومدرسًا للجراحة بها ، وجعله سعيد باشا طبيبه الخاص مع الاحتفاظ بكل وظائفه ، واصطحبه معه فى رحلته إلى أوربا .

لقد أصبح الدكتور محمد على البقلى ألمع الشخصيات الطبية فى عصره ، وكانت مصريته غامرةً متدفقة ، فهو الذى وقف وحده ضد الأطباء الأجانب الذين حاولوا السيطرة على مدرسة الطب ومستشفى قصر العينى ، فتحداهم جميعًا ، وتحدى معهم عباس باشا الأول الحاكم المستبد المجنون ، وأكد للناس أنه يستطيع بمفرده أن يأخذ كل المرضى من مستشفى قصر العينى ويعالجهم فى عيادته .

هذا الموقف الصلب القوى الفريد من أعظم المواقف التى سجلها الدكتور البقلى بمشرط الجراح وعبقرية الطبيب .

وزفد نجمه صعودًا عندما أصبح الطبيب الخاص للوالى سعيد باشا .

وفى عصر إسماعيل زاد نجم الدكتور البقلى صعودًا ، فأصبح أول ناظر مصرى لمدرسة الطب .

هذه الرحلة السريعة الخاطفة من كتاب قرية زاوية البقلى حيث كان يجلس الصبى محمد على البقلى على الحصيرة ليردد مع زملائه آيات من كتاب الله الكريم . . إلى كرسى ناظر مدرسة طب قصر العينى ، ليست من الرحلات العادية فى ذلك العصر ؛ لأنه لم يكن فى مصر طبيب مصرى واحد قبل إنشاء مدرسة الطب ، بل كان بعض الأجانب يمارسون هذه الصناعة فى حارة الإفرنج عند شارع الموسكى ، ولم يكن أحد يعرف هل هم أطباء أم دجالون ؟

وقد وصف الجبرتى دكاكين هؤلاء الأطباء الأجانب وذكر أن كثيرًا منهم كانوا من الدجالين الذين تسببوا فى مصائب وكوارث بسبب جهلهم وكانت السلطة الحاكمة توقفهم عن العمل فى معظم الأحوال حرصًا على سلامة الناس .

وبعد إنشاء مدرسة الطب فى عهد محمد على كان ناظرها هو الدكتور كلوت بك وهو رجل شريف القصد نزيه الهدف ، وكان من أعظم أعماله تخريج أطباء مصريين ، وهو الذى علم الدكتور البقلى وأرسله فى البعثة إلى باريس ، ولكن الأطباء الأجانب الذين كانوا يعملون فى قصر العينى حاربوا النهضة المصرية ، ثم تكتلوا ضد الدكتور البقلى فى عهد عباس الأول حتى أبعدوه عن مدرسة الطب كما قلت لك ؛ ولذلك كانت رحلة هذا العظيم صعبة جدًّا فى عصره ، وكان وصوله إلى نظارة مدرسة الطب خلفًا لأستاذه الدكتور كلوت بك من أهم انتصارات الإرادة المصرية التى كانت تحارب فى جبهتين :

- السلطة الحاكمة المستبدة الجاهلة .
- النفوذ الأجنبى المتغلغل .

لقد كان عباس الأول شخصيةً غريبة الأطوار مصابًا بكل ألوان الشذوذ ، فقد أصدر أمرًا لجميع موظفى الحكومة بتربية ذقونهم وإلا فصلوا من الخدمة ، وعندما أنشأت شركة بريطانية أول خط حديدى فى مصر بين القاهرة والإسكندرية أصدر أمره إلى شاعره الشيخ محمد شهاب

الدين بكتابة قصيدتين إحداهما فى مدح الملكة فيكتوريا ، والثانية فى مدح رئيس وزرائها بالمرستون ، وإرسال القصيدتين إلى لندن لتسليمهما للملكة ورئيس الوزراء .

وأنت ترى كيف عاش الدكتور البقلى ورفاقه من المثقفين المصريين فى هذا الجو الرهيب الغريب .

وعندما وصل الدكتور البقلى إلى كرسى النظارة فى مدرسة الطب بدأ يحقق أعظم أحلامه :

- تعريب العلوم الطبية .
- التدريس فى مدرسة الطب باللغة العربية .

لقد أراد إنهاء النفوذ الأجنبى نهائيًا حتى لا يعود للسيطرة على مدرسة الطب . وحتى تصبح المدرسة الطبية المصرية هى صاحبة الكلمة العليا ، وليس معنى ذلك كما يتبادر إلى بعض الأذهان الانفصال عن التيارات العلمية العالمية ، أو عدم تعلّم اللغات وإتقانها ، فهذا شىء آخر ، فالانجليز يدرسون الطب بالإنجليزية ، والفرنسيون بالفرنسية ، والألمان بالألمانية ، والطليان بالإيطالية ولم يقل أحد إن استخدام لغاتهم القومية فى تعلم الطب أبعدهم عن عالمية العلم .

بل إن العلوم الطبية بالذات عربية الأصل ، وقد ظل كتاب (القانون فى الطب) للشيخ الرئيس ابن سينا يدرس فى جامعات أوربا قرونًا عديدة ، وما زالت كلية الطب فى جامعة باريس تحتفظ بالصورة التذكارية لابن سينا فى صدر قاعتها الرئيسية .

كان الدكتور البقلى يعرف كل هذه الحقائق ، ويعرف أن معظم المصطلحات الطبية أصلها عربى ولذلك كانت دعوته لتدريس الطب باللغة العربية منطقية وعلمية .

وعندما أصبح التدريس باللغة العربية قامت المشكلة :

- أين الكتب الطبية العربية التى يرجع إليها الطلبة ؟

خلال هذه الأيام المجيدة فى حياته أنعم عليه الخديوى إسماعيل برتبة الباشوية ، وعندما استقبله الخديوى فى قصر عابدين دار بينهما الحديث حول تدريس الطب باللغة العربية ، وعدم وجود كتب عربية فى العلوم الطبية .

وقال له الخديوى إسماعيل :

- لماذا لا تؤلف هذه الكتب يا باشا ؟
- ومن سيطبعها يا أفندينا ؟.. إنها كتب كبيرة باهظة التكاليف ، وعدد طلاب الطب

محدود ولا يستطيعون شراءها .

وجلس إسماعيل الخديوى يستمع ، والدكتور البقلى باشا يتحدث :

– وفى فرنسا هذه الكتب تنفق عليها الحكومة وتعطيها للطلبة بأثمان رمزية ، وهى تباع داخل الجامعة .. وإذا كان الطالب غير قادر على دفع الثمن تمنح له بالمجان .

وأنا عندما كنت فى البعثة كانت إدارة البعثات تشترى لنا هذه الكتب التى مازلت أحتفظ بها .

كان إسماعيل ينظر من نافذة قصر عابدين ، وهو يستمع إلى هذه الكلمات ، وفجأةً التفت إلى الدكتور البقلى باشا وقال له :

– أنت وزملاؤك تؤلفون الكتب ، وأنا أطبع هذه الكتب فى مطبعة بولاق .

وأصدر الخديوى أمرًا لمدير المطبعة الأميرية فى بولاق بطباعة كل الكتب التى يرسلها إليه الدكتور محمد على البقلى باشا ناظر مدرسة الطب .

ثم بدأت النهضة الطبية فى مصر ، وأصبحت مدرسة الطب مصريةً مائةً فى المائة كما أراد ناظرها العظيم .

أصدر الدكتور البقلى مؤلفاته القيمة :

- روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى – طبع سنة ١٨٤٣ .
- غرر النجاح فى أعمال الجراح – فى جزءين طبع سنة ١٨٤٦ .
- غاية الفلاح فى أعمال الجراح – طبع ١٨٦٥ .

ولم يقف الدكتور البقلى وحده فى الميدان ، بل شاركه زملاؤه أساتذة مدرسة الطب فى التأليف والترجمة ، فكونوا أول مكتبة طبية حديثة باللغة العربية وكان أشهرهم :

الدكتور إبراهيم بك النبراوى وقد ترجم من الفرنسية كتاب (الأربطة الجراحية) و(الفلسفة الطبيعية) من تأليف الدكتور كلوت بك .

- الدكتور أحمد حسن الرشيدى بك ، وله من المؤلفات : عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج – رسالة فى تطعيم الجدرى ترجمها عن الدكتور كلوت بك – الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية – .. وكتب أخرى كثيرة بلغت عشرة مؤلفات ، وكان أهمها كتابه (عمدة المحتاج) الذى أصدره فى أربعة مجلدات كبيرة ويعتبر أول دائرة معارف طبية فى اللغة العربية .
- الدكتور محمد الشافعى بك وله كتاب (أحسن الأغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض) طبع فى مجلدين سنة ١٨٤٣ ، وكتاب « السراج الوهاج فى التشخيص والعلاج)

فى أربعة مجلدات – طبع سنة ١٨٦٤ .

وقد اشترك فى حركة الترجمة والتأليف الدكتور محمد الشباسى بك ، والدكتور مصطفى بك السبكى ، والدكتور عيسوى النحراوى ، والدكتور حسين الرشيدى أستاذ الصيدلة ، والدكتور على هيبة أستاذ الولادة وأمراض النساء ، والدكتور حسين عوف باشا أستاذ أمراض العيون وغيرهم كثيرون ، كان لهم الفضل الأول فى تحقيق النجاح لحركة تعريب الطب .

هؤلاء الأطباء العظماء كانوا شركاء الدكتور البقلى فى هذه الحركة الهامة التى تعتبر من أهم حركات النهضة العلمية فى مصر ، ولو أنها انتكست ولم تستمر بعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، فقد عصف بها الاستعمار ، وأخمد جذوتها ، وجعل اللغة الإنجليزية هى لغة مدرسة الطب المصرية .

ويجب أن ندرك أن هذه المدرسة الطبية نشأت فى البداية فرنسية اللغة عندما أنشأها الدكتور كلوت بك ، ولكنها عربت الطب ، ولم يحدث شىء عندما تمت حركة التعريب ، بل ظلت مدرسة طب قصر العينى أعظم المدارس الطبية فى الشرق ، وكان يلتحق بها طلاب من بلاد الشام فى عصر إسماعيل ، وتخرج فيها كثيرون منهم .

وفى سنة ١٨٦٥ قام الدكتور البقلى باشا بعمل أكثر جراءةً من تأليف الكتب الطبية فى اللغة العربية ، فقد أصدر بالاشتراك مع زميله الدكتور إبراهيم دسوقى بك مجلة اليعسوب ، وكانت أول مجلة طبية تصدر باللغة العربية .

إن نظرات هذا الرجل العظيم وطموحه كانت تتعدى حدود عصره وزمانه .

لو كان فى يدنا إحصاء بعدد المجلات الطبية فى العالم فى سنة ١٨٦٥ أى منذ ١١٦ سنة ، فقد لاتكون أكثر من خمس مجلات فى كل اللغات ، وكان منها مجلة (اليعسوب) التى كانت تصدر فى القاهرة باللغة العربية .

كيف فرت هذه النهضة من أيدينا ؟

لقد سرق الاستبداد والطغيان والاستعمار نهضة مصر الحديثة ، وكانت كلما خطت خطوة إلى الأمام أعادوها خطوتين إلى الوراء .

ولكن الوطن الذى ينجب أمثال هؤلاء العظماء لن يعود إلى الوراء .. وسيمضى لإعادة بناء الحضارة بعون الله .

عبدالله فكرى باشا

أول وزير أعلن حق التعليم فى مصر

ليست هذه هى المرة الأولى التى ألتقى فيها بالوزير عبدالله باشا فكرى ، فقد أثرت بسببه مشكلةٌ مع أستاذى طه حسين منذ ثلاثين عامًا عندما جلس الدكتور طه حسين باشا على الكرسى الذى كان يجلس عليه عبدالله باشا فكرى وزيرًا للمعارف .

كان طه حسين قد أعلن بصوت يدوى كالرعد أن العلم للناس كالماء والهواء ، وقرر مجانية التعليم حتى المرحلة الثانوية ، واعتقد كثيرون حتى هذه اللحظة أن ما قام به وزير المعارف الدكتور طه حسين باشا كان عملا خارقا للعادة ، وما زلنا نتباهى بمجانية التعليم الجامعى عندنا مما حققته ثورة ٢٣ يوليو .

ومنذ متى كان التعليم فى مصر له أجر؟

إن أضخم جامعة نشأت فى دار الإسلام وفى قلب القاهرة وهى الجامع الأزهر كانت تأوى طلابها من المجاورين لأعمدة العلم ، وكانت تعطيهم الجراية وهى الطعام الذى كان يجرى عليهم راتبًا يوميًّا فى أرغفة من الخبز يستبدلون ببعضها طعاما رخيصا من الفول والطعمية .

ولم أشك فى أن الدكتور طه حسين كان يعرف هذه الحقيقة منذ كان مجاورا فى الأزهر ، وقد عاش حياة المجاورين بكل قسوتها مما صوره فى كتاب الأيام .

المهم هو أن التعليم فى مصر لم يكن له أجر فى الجامع الأزهر ، وفى بدايات العصر الحديث منذ محمد على حتى حفيده إسماعيل ، كانت الدولة تدفع للتلاميذ مكافآت ورواتب وتنفق على تعليمهم فى مصر وأوربا .

ولم تظهر حكاية مصروفات التعليم إلا بعد الاحتلال البريطانى لمصر الذى حاول وقف حركة النهضة ، ولكنه برغم ذلك لم يستطع منع مجانية التعليم فى الأزهر ومدرسة دار العلوم ومدرسة المعلمين العليا ، وظلت هذه المعاهد العليا تدفع للطلاب جرايات أو رواتب لتشجيعهم على طلب العلم .

وعندما أعلن الدكتور طه حسين مجانية التعليم تذكرت كل هذه الرحلة المشرقة فى حياة

مصر ، وكنت أسمع من شيخى أمين الخولى أن العلم لا يؤجر عليه ، وأن أكابر العلماء فى تاريخ الإسلام لم يكونوا يطلبون أجرا على تعليم طلابهم ، لأن العلم للناس كالماء والهواء .. هكذا قال طه حسين .

ولكن مجانية التعليم شىء آخر .

فى عام ١٩٥٠ كتبت مقالا فى جريدة البلاغ كان عنوانه (التعليم بين عبد الله باشا فكرى والدكتور طه حسين باشا) ، وكان طه حسين وزير المعارف الذى زلزل الدنيا بكلمتى : الماء والهواء وقلت إن عبد الله باشا فكرى وزير معارف الثورة العرابية كان أبعد هدفًا لأنه لم يقرر مجانية التعليم فقد كان هذا أمرا متعارفا عليه ، ومفروغًا منه ، ولكنه قرر حق كل مصرى ومصرية فى التعليم العام .. وأن هذه هى قضية مصر .

واليوم .. وبعد ثلاثين عاما ما زالت القضية معلقة لم يصدر فيها حكم لصالح الشعب المصرى الذى بلغ تعداده أكثر من أربعين مليونا غالبيتهم العظمى من الأميين .

لقد غضب طه حسين من مقالى غضبا شديدا ، واعتبره هدما لسياسته التعليمية ، مع أننى كنت أريد شيئا آخر هو أن يصبح التعليم فى مصر من حقوق المواطنة حتى تحدث النهضة الحقيقية ، ولا يهم بعد ذلك أن يكون التعليم الثانوى أو الجامعى بالفلوس . أو بالمجان ، فقد كانت المدارس الثانوية والجامعة فى أيامنا تمنح المجانية لمن يستحقونها ولو أنهم كانوا قلة قليلة بعضهم فقراء قادرون على التعلم والوصول إلى أقصى درجات العلم ، وبعضهم قادرون نوابغ يرجى منهم الوصول إلى هذه الدرجات العليا فى العلم .

ولكن قضية الصفوة المتعلمة فى المجتمع وبعد مائة سنة من قرار الحل النهائى والجذرى لها الذى اتخذه وزير المعارف عبد الله باشا فكرى عندما قرر حق التعليم للمصريين جميعا ، ليست هى المشكلة التى ما زلنا نواجهها حتى اليوم وهذا الحق مجانى وليس له ثمن ولا أجر ولا مصروفات .. وهذه بديهية .

كان تقرير هذا الحق من المبادئ الأساسية للثورة العرابية ، ثم سقط مع سقوط هذه الثورة .

وكان تقرير هذا الحق من المبادئ الأساسية لثورة ١٩١٩ التى قررت التعليم الإلزامى ، وعينت الشيخ عبد العزيز جاويش مديرا لهذا التعليم الذى عصفت به الأهواء ، وذهب أدراج الرياح وسط صراعات الأحزاب والملك والمندوب السامى البريطانى .

رحلة طويلة وشاقة ومثيرة كان بطلها الأول هذا الرجل : عبدالله فكرى .. وكان فيلسوفها الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد عبده .

هذا الرجل أصبح قضية القضايا فى الحياة المصرية الحديثة . وهو يستحق الدراسة من ناحية أفكاره التعليمية برغم أنها لم تتحقق ، فإنها تمثل الاتجاه الثورى الحقيق فى حركة النهضة المصرية الحديثة .

لقد كان عبدالله فكرى – مثل طه حسين – أديبا شهيرا ، وقد تناوله المؤلفون فى الغالب من هذه الناحية ، وقد جمع انتاجه الشعرى والنثرى فى مجلد واحد أشرف عليه ولده أمين باشا فكرى ، ولكننى لا أعرض عليك شخصية الأديب الكبير الذى كان رائد تجديد النثر العربى كما كان محمود سامى البارودى رائد تجديد الشعر . وقد كان فكرى وزير المعارف فى وزارة البارودى وهى وزارة الثورة العرابية ، فهما متعاصران فى الثورة وفى التجديد مما يدعونا إلى التأمل فى حقائق التطور الحديث الذى ارتبط بالأفكار والقيم أكثر من ارتباطه بالأشخاص الذين شاركوا فى صنع النهضة . فإن هذه الشخصيات العظيمة كانت التعبير المجسد عن ملامح التقدم فى مجالات العلم والأدب والفن ، ولا يجوز النظر إلى واحد منهم على أنه ظاهرة فريدة أو وحيدة ، فإن عناصر المشاركة الجماعية هى التى تحدث عوامل النهوض فى المجتمعات .

وأنت ترى كيف كان عبدالله فكرى ، وهو شاعر تقليدى ، يجدد فى أسلوب النثر ، عندما كان محمود سامى البارودى يجدد فى أسلوب الشعر .

لم يستطع فكرى القيام بتجديد الشعر مع أنه نظم ديوانًا كاملاً ، ولكن مواهبه مكنته من كتابة لون جديد من النثر لا تثقله المحسنات البديعية والسجع الممجوج الذى كان سائدًا على أقلام كتاب عصره ، بل إنه كتب رسائل بارعةً باللهجة العامية المصرية تعتبر فى قمة الفن النثرى .

لقد أردت الابتعاد عن تحليل شخصية عبدالله فكرى كاتبا وشاعرا ، حتى لايصرفنى هذا عن التعريف به كرائد من رواد حركة التعليم فى مصر ، ولكنه أرغمنى على هذا الحديث الموجز عن شخصيته الأدبية ، حتى ندرك معا أن الرجل كانت له قيمة ذاتية ، وأن هذه القيمة هى التى مكنته من فتح الباب الموصد فى وجه الملايين الذين يحتاجون إلى الماء والهواء حاجتهم إلى رغيف الخبز ، بل إن حاجتهم إلى التعليم مازالت حتى هذه اللحظة أهم من الماء والهواء والخبز .

ولكن .. من هو هذا الرجل الذى نتحدث عنه ؟

من المصادفات أن الذى عرفنا بعبد الله فكرى باشا هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فهو الذى كتب بقلمه تاريخ حياة هذا الرجل العظيم الذى تصدى لتحقيق آمال الأستاذ الإمام وسط لهيب النار فى الثورة العرابية ، وكان كلاهما من رجالها ، ومن مشعلى نورها بنارها .

كان محمد عبده ، فيلسوف الثورة يدعو إلى تحقيق التعليم قبل تحقيق الديمقراطية ، ويقول إن الشعب الجاهل لايستطيع انتخاب مجلس النواب الذى يمثله تمثيلا صحيحا ، وكان عرابى يقول إن إسقاط الطغيان والاستبداد لايتم إلا عن طريق مجلس النواب الذى يمثل الشعب .

وعندما حدث هذا الصدام العنيف بين نظريتين متعارضتين ، كان عبدالله فكرى هو الرجل الذى تصدى لحل المشكلة التى مزقت الثورة فيما بعد وعصفت بها .

لم يكن الوقت مناسبا للبحث عن حلول للمشكلات ، قبل حل المشكلة الأساسية وهى نظام الحكم فى مصر ، ولكنهم جميعًا أغمضوا عيونهم عن ذلك حتى بعد خيانة الخديوى توفيق وأعوانه للثوار وهم فى أوج قوتهم وسيطرتهم ، ولم يكن فيهم مطالب بإعلان الجمهورية غير ضابط صغير اسمه (محمد عبيد) فك أسر عرابى ورفاقه من سجن قصر النيل ، ولم يسمع أحد من الباشوات كلامه ، بل إن عرابى رشح محمود سامى البارودى لرئاسة الجمهورية فلم يقبل واعتذر ، وقال لعرابى إنه هو أحق بذلك ، ورد عليه عرابى ردا ساذجا عندما ذكر البارودى بأن جده كان من سلاطين المماليك فى مصر ، ويمكن أن يصبح ملكا لمصر ! !

المهم هو أن عبدالله فكرى كان يسمع كل هذا الكلام ، وكان يخطط لمستقبل التعليم فى مصر .

إن عبدالله فكرى من سلالة أزهرية ، وكان أجداده من علماء الأزهر ، ولكن والده كان مهندسًا ضابطًا فى جيوش محمد على ، وأمه من بلاد المورة ، وقد جاء بها أبوه خلال اشتراكه فى الحروب فى تلك البلاد ، وأخذها معه إلى الحجاز أثناء حروب محمد على هناك ، حيث ولد عبدالله فى مكة .

وكان والد (عبدالله فكرى) واسمه (محمد بليغ) من كبار موظفى الدولة ، فهو باشمهندس الشرقية ، ثم أصبح مهندس الجيزة والبحيرة ، وتوفى عندما كان ولده لم يبلغ الحلم .. ثم بدأت رحلة الفتى الذى كتب اسمه بمعرفة السلطة الحاكمة (عبدالله فكرى) فى الأزهر الشريف .

وأنت ترى معى أن اسمى (محمد بليغ) و(عبدالله فكرى) لا علاقة لهما بالأسرة التى

ينتميان إليها من علماء الأزهر ، فقد كانت هذه الأسماء تمنح للموظفين مع قرار تعيينهم فى وظائفهم فيما يبدو لى ، فهى أسماء مزدوجة لا علاقة لها بالآباء والأجداد ، وكأنها أسماء شهرة .

تعلم الفتى فى الأزهر ، وكان فى نفس الوقت يتقن اللغة التركية وهى التى أهلته لوظيفة فى الديوان ، ويبدو أن سبب ذلك هو أمه التى كانت من بلاد المورة وتتكلم التركية .

المهم هو أنه كان يتقن العربية كأزهرى لم يفارق صحن الجامع حتى بعد توظفه ، وكان يتقن التركية التى يتحدث بها مع أمه المورالية ، وكان هذا النموذج من عارف اللغتين العربية والتركية مطلوبا فى دولة محمد على وخلفائه ؛ ولذلك وصل عبدالله فكرى إلى المناصب الرفيعة ، غير أن هذه المناصب لم تكن هى السبب فى شهرته ، فقد كانت له مواهب خاصة جعلته أديبا شاعرا كاتبا ، كما أنه كان يتقن اللغة الفارسية أيضًا إلى جانب العربية والتركية .

وفى عهد إسماعيل كان (عبدالله فكرى) مدرسا للأمراء ومنهم ولى العهد (محمد توفيق) وأخوه حسن وحسين وغيرهم من أمراء أسرة محمد على ، وبذلك دخل من باب قصر عابدين ، وأصبح من أقرب المقربين .

ثم أصبح أستاذ الأمراء ومعلمهم واحدا من كبار المعلمين فى عصره ، واشتغل مع على باشا مبارك الذى مازلنا نصفه بأنه أبو التعليم فى مصر ، وسنظل نصفه بهذا الوصف الجميل .

ويبدو أن علاقة عبدالله فكرى كانت وثيقة بعلى مبارك ، وأنه تأثر بأفكاره فى التعليم قبل أن يعرف محمد عبده . فقد كان على مبارك أستاذا عظيما على مستوى فكرى رائع فى تطبيع مناهج التعليم الحديثة فى مصر ، ثم كان محمد عبده فيلسوفًا داعية إلى حق الشعب فى التعليم قبل حقه فى الديمقراطية .

وأصبح عبدالله فكرى وزيرا للمعارف ومسئولا عن التعليم فى مصر خلال لحظة الانطلاق الثورى الملتهب ، يجمع بين مناهج على مبارك وبين فلسفة محمد عبده .

إن هؤلاء الرجال جميعا كانوا فى عصر واحد ، وقد كان على باشا مبارك من المعاصرين لهذه الأحداث التى نتحدث عنها ، وقد حاول القيام بدور حمامة السلام بين أحمد عرابى وبين الخديوى الخائن توفيق فعجز عن ذلك . كما أن عبدالله باشا فكرى كان من المتهمين الذين حوكموا أمام المحكمة العسكرية مع أحمد عرابى ، ولكن المحكمة أصدرت حكما ببراءته لأن دوره كوزير معارف لم يدخل فى نطاق السياسة والحرب ، ورغم ذلك منع عنه معاشه الشهرى

وأرادوا أن يذلوه حتى يتضور جوعا ، فكتب للخديوى الخائن توفيق قصيدته الذائعة المشهورة التى جعل عنوانها :

(عريضة استعطاف واسترحام لولى الأمر والإنعام) وقال فى استهلال استرحامه واستعطافه :

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى
وكبر إن وافيت واجتنب الكبرا
وقف خاضعا واستوهب الإذن والتمس
قبولاً ، وقبل سدة الباب لى عشرا
وبلغ لدى الباب الخديوى حاجة
لدى أمل يرجو له البشر والبشرى .

أذل الحرص أعناق الرجال ..!!

هذا الأستاذ الجليل الذى كان يجلس أمامه توفيق الأمير قبل أن يصبح خديوى مصر ، فى مقعد الدرس تلميذًا له ، أصبح يقف خاضعًا على باب توفيق يقبل العتبات ويلتمس الإذن ، حتى يعاد إليه معاشه .. ثم لايؤذن له بالدخول إلا بعد القصيدة .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن هذه الواقعة ، وكان هو نفسه سجينًا مع الثوار وحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات إلى بلاد الشام :

« عقب الثورة سجن (عبدالله فكرى) ضمن من سجن بتهمة الاشتراك فيها مع كثير من العلماء والأمراء (أى الكبراء وليسوا أمراء أسرة محمد على) وغيرهم ، وكان ذلك بسبب ما وشى به بعض المفسدين ، وقد ثبتت براءته من تهمة الاشتراك فيها بعد التحقيق الذى أجراه من كان مفوضا إليهم أمر هذه الحادثة ، فأفرج عنه وخرج من السجن ، وبقى معاشه موقوفا ، والتمس مقابلة الخديوى فلم يسمح له بذلك ، فنظم فى ذلك قصيدة سارت مسرى الأمثال فى الشهرة ، فلما عرضت على الخديوى أجلها ، وأحلها من القبول محلها ، وسمح له بالمثول بين يديه ، وأقبل عليه وأطلق معاشه .

ونحن لانلوم عبدالله فكرى على هذا الموقف ، ولكننا نلوم الزمن الذى ألجأه إلى ذلك ، فقد كان زمنا لعينا .

سارت حياة فكرى باشا بعد ذلك فى طريق العلم بعيدا عن السياسة ، فسافر إلى الحجاز

لأداء فريضة الحج ، والتقى بعلماء مكة المشرفة والمدينة المنورة ، الذين استقبلوه أعظم استقبال ثم سافر بعد ذلك إلى بلاد الشام وزار بيت المقدس ودمشق وبعلبك ، وكانت له هناك صولات وجولات مع العلماء والأدباء والشعراء .

وقبل نهاية رحلته الترابية عين رئيسًا للوفد العلمى المصرى فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى استكهولم ، وخلال فترة ذهابه وعودته طاف بعدد من عواصم أوربا وشاهد بلاد النمسا وإيطاليا وسويسرا والدانمرك والسويد والنرويج وألمانيا .

الذى يلفت النظر أنه قدم لمؤتمر المستشرقين فى استكهولم بحثا فريدا سماه (عجالة البيان على ديوان حسان) وهذا البحث تحقيق علمى لديوان شاعر الرسول ﷺ (حسان بن ثابت) ، حيث جمع كل ماتيسر له من نسخ مخطوطة لهذا الديوان ، وقارن بينها ، وحقق أصولها ، ثم كتب ترجمة لحياة الشاعر وشرحا لإحدى قصائده . وقد أثار هذا البحث الفريد اهتمام المستشرقين ، واحترام الصحافة والحكومة فأنعم الملك أوسكار الثانى ملك السويد والنرويج عليه بنيشان (وازه) من الدرجة الأولى ، وهذا التقدير من الملك لعالم مصرى يعتبر من أعظم درجات التشريف للعلم والعلماء .

لقد حدثتك عن الرجل .. وبقى أن أحدثك عن الموقف الذى دعانى للعودة إلى الكتابة عن عبدالله باشا فكرى بعد ثلاثين سنة من كتابة مقالى الأول عنه فى جريدة البلاغ ، متحديا به أستاذى طه حسين فى تجربة النهضة التعليمية الحديثة فى مصر .

هذا الموقف منشور بكل تفصيلاته فى جريدة الوقائع المصرية الصادرة فى ٢٨ مارس ١٨٨٢ وقبل أن يضرب الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ بشهور قلائل .

تصور معى كيف أن مصر كانت تحدد موقفها من التعليم قبل أن يضربها أسطول بريطانيا فى الإسكندرية بثلاثة شهور ، وقد نشرت الوقائع المصرية تفاصيل جلسة مجلس النواب عن مستقبل التعليم فى مصر نشرا كاملا .. وكل كلمة مطبوعة فى الجريدة الرسمية تعتبر شمعة أضاءها هذا الرجل عبدالله فكرى .

كان عبدالسلام المويلحى نائب القاهرة هو الذى تقدم إلى حكومة البارودى باشا بمذكرة عن توسيع دائرة المعارف العمومية فى مصر ، وركز المويلحى على ثلاثة أسئلة :

١ – بيان المدارس الأميرية الموجودة فى مصر حينذاك .

٢ – بيان عن المدارس التى يمكن لوزارة المعارف إنشاؤها فى هذا العام ١٨٨١ – ١٨٨٢ من المندرج فى ميزانيتها .

٣ – بيان ما يمكن تخرجه من مدرسة المعلمين خلال العام وحتى اجتماع مجلس النواب فى السنة القادمة .

ولكن وزير المعارف عبدالله فكرى لم يقدم لمجلس النواب إجابة تقليدية عن الأسئلة المطروحة ولكنه أضاف إلى إجابته وضع سياسة مستقبلية للتعليم فى مصر ، ولم يخرج من قاعة مجلس النواب إلا بعد أن أخذ موافقة المجلس الاجماعية على سياسته التى مزقتها حراب العساكر البريطانية المعتدية على مصر بعد ثلاثة شهور .

قال وزير المعارف منذ مائة سنة : إن الحكومة لاتستطيع بناء المدارس المطلوبة لتعليم أبناء الشعب وبناته ، وقال لأعضاء مجلس النواب فى عام ١٨٨١ :

– إذا أنشأت الحكومة فى السنة أربع مدارس بل خمسًا بل عشرا بل فى كل شهر مدرسة .. لزمكم على تلك الحالة أن تنتظروا لحصول هذا الغرض نحو خمسمائة سنة .

ولم يكن وزير المعارف قد أتى لمجلس النواب متحديا للشعب المصرى ونوابه ، ولكنه جاء بالحل معه وفى أوراقه .

طالب النواب والأعيان والأغنياء بإنشاء المدارس فى بلادهم وقراهم .. وقال لهم :

– إيجاد المدارس على نفقة الأهالى لايكلفهم غير جزء صغير من المصاريف ، فالطوب يضرب فى البلد ويحرق فى البلد ويبنى بمعرفة بنائين وفَعَلَةَ منها ، ولا يخفى ما فى ذلك من قلة النفقات .

ثم قدم الوزير لأعضاء مجلس النواب رسما يشمل تخطيط مدرسة من الدرجة الأولى والثانية والثالثة ، وقال للنواب .

– أعرضه عليكم مثالاً ، وفى الجيزة مدرسة من الدرجة الأولى ، وفى قليوب مدرسة من الثالثة جعلت فى تلك الجهات الواقعة على خط سكة الحديد ليسهل معاينتها وتكون كل منها نموذجًا لنوعه .

وطالب النواب بمشاهدة هذه النماذج ، وقال إنه يمكن بناء مدارس بتكاليف أقل ، ولو بالطوب الأخضر لأن القصد المنفعة وليس الوجاهة .

وقد حل الوزير كل المشكلات حتى تعيين المدرسين ورواتبهم ، وقرر أن يكون المدرس من

أهل القرية مثل خطيب المسجد أو غيره من الأزهريين ، على أن تتحمل الحكومة راتبه وجعل الراتب بين ٢٠٠ قرش و٣٠٠ قرش .

وحدد المواد التى تدرس فى هذه المدارس وهى القرآن والإملاء والمطالعة والحساب وبعض العلوم الطبية .

وقد تدخل فى المناقشة الشواربى بك نائب قليوب فأيد وزير المعارف فى وجوب بث المعارف الابتدائية فى أنحاء القطر ، ولكنه قال إن فن الزراعة لازم جدا لبلادنا ، فوافقه الوزير على ذلك .

أما أحمد أفندى عبد الغفار نائب تلا ، فقد أكد أن سعادة ناظر المعارف أتى على ما فى النية ، طالب بتشكيل لجنة للتنفيذ ، وطالب الوزير بأن يشرف اللجنة بالحضور فى بعض لأحيان وقال عبدالله فكرى إنه يشرفه حضور اللجنة .. وأعلن على مسمع من النواب :

– إن حضورى إلى اللجنة لا أتأخر عنه البتة وما عليها إلا أن تعين لى الأوقات التى تلائمها والبيانات التى تحتاج إليها ، فأحضر فى الأوقات المعينة مع البيانات اللازمة .

. . . . . .

وفى جلسة يوم السبت ٢٠ ابريل ١٨٨٢ قرر مجلس النواب المصرى هذا القرار الهام والخطير :

« إن الحالة التى وصلت إليها البلاد بهمة ذوى النجدة والغيرة من أبنائها (أحمد عرابى وأصحابه من الثوار) تستدعى الاجتهاد فى تعميم التعليم وتسهيل طرقه فقررت أن يقوم كل واحد من النواب بإنشاء مكتب (مدرسة) من الدرجة الثالثة فى بلدة تُعلم فيه القراءة والكتابة وطرف من الحساب والفقه والنحو بدون أن تتكلف الحكومة بشىء من النفقات سوى أن تتنازل عن الموضع الذى تبنى فيه من البراح الباقى تحت ملكها . أما الذين يعهد إليهم فى تلك المكاتب (المدارس) فيؤخذون بواسطة نظارة المعارف من الجامع الأزهر وعلى النظارة ترشيحهم للقيام بهذه الوظائف كما سبق ذلك فى خطبة ناظر المعارف أمام هيئة المجلس وكما أقرت عليه اللجنة أيضا .

وطالب على بك القريعى نائب المنصورة بطبع رسومات المدارس وتقديم نسخة لكل عضو لتنفيذها .

(استحسان) .. ثم فضت الجلسة فى الساعة العاشرة مساءً .

. . . . . .

كان عبدالله فكرى هو بطل هذا الموقف .. وكان هو أول من أعلن حق التعليم فى مصر منذ مائة عام .

من حق هذا الرجل العظيم أن ننحنى تحية لأفكاره الرائدة التى مازلنا فى حاجة إلى من ينفذها لينقذ مصر من الأمية الطاحنة .

obeikandl.com

محمود فهمى .. المهندس

من أساطين العسكرية المصرية

فى حرب أكتوبر ١٩٥٦ عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر ، نفذت العسكرية المصرية خطة اللواء محمود فهمى باشا المهندس ، التى عجز عن تنفيذها فى يوليو ١٨٨٢ . فدخلت بوارج الأسطول البريطانى سن بورسعيد ووصلت إلى الإسماعيلية ، كما اقتحمت قطع بحرية بريطانية مياه السويس . وأصبح جيش عرابى فى التل الكبير تحت نيران المدافع الإنجليزية ، ثم وقعت هزيمة التل الكبير ، واحتلت بريطانيا مصر.

ولكن القيادة العسكرية المصرية التى تعلمت هذا الدرس ، سدت منافذ قناة السويس فى الشمال والجنوب عام ١٩٥٦ ، فعجزت الجيوش البريطانية الفرنسية عن الوصول إلى الإسماعيلية واعترف بذلك قادة هذه الجيوش بل إنهم قالوا إن قواتهم لو خرجت من بورسعيد وتقدمت خطوةً واحدةً على الشريط الضيق الممتد إلى الإسماعيلية فإن المصريين سيقضون عليها قضاءً مبرمًا ، بعد أن يقطعوا عنها المدد من الأساطيل الرابضة فى مياه بورسعيد .

هذه الخطة رسمها هذا المهندس العسكرى محمود فهمى باشا ، أحد زعماء الثورة العرابية وأحد قادتها المرموقين ، وهو واحد من الباشوات السبعة المحكوم عليهم بالإعدام بعد هزيمة التل الكبير ، ثم خفف الحكم عليهم بالنفى إلى جزيرة سيلان ، وقد توفى فى منفاه فى شهر ذى الحجة سنة ١٣١١ هجرية .

إن اللواء محمود فهمى باشا من الشخصيات القادرة فى التاريخ المصرى الحديث برغم أنه لم يستطع تنفيذ خططه العسكرية كاملة عندما كان مسئولا عن الاستحكامات فى جيش عرابى . بعد أن ضرب الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨١ . ثم احتلتها العساكر الإنجليزية ، ظل محمود فهمى فى المدينة التى خلت من سكانها حتى يوم الجمعة ١٤ يوليو .. وهو يحدثك بنفسه عن مشاهداته :

«كنت أنا فى ذلك الوقت موجودا فى الإسكندرية ، ولا أحد فيها ، وحاراتها مرممة بالقتلى خراب ينعق فيها البوم والغراب ، ورأيت الخديوى (توفيق) وحرمه وأتباعه يتوجهون إلى رأس

التين وخلفه عساكر الإنجليز محافظين عليه ولم أر أحدًا خلاف سعد أبو جبل وكان قائمقام أورطة المستحفظين . فقال لى : إن لم تذهب من هنا حالاً صرت قتيل الخديوى فى هذه الليلة ، فاتبع نصيحتى واخرج من الإسكندرية .

فخرجت مسرعًا حتى وصلت إلى كفر الدوار ، وتقابلت مع عرابى ، وقلت له

– إن الخديوى توجه إلى رأس التين تحت حفارة الإنجليز .

فقال لى :

– إن قطر السكة الحديد مستعد له عند محطة الشيخ جابر ، ليركب فيه ويعود إلى القاهرة .

فقلت له :

– هذا ما رأيت .. لقد لجأ الخديوى إلى الإنجليز .

ومن هذا الوقت ألزمت نفسى بالأعمال والأشغال اللازمة للتحفظ ، وإلا فأنا ميت ميت ، وكل يعمل حسب ما هو مسخر له ، فأشرت على عرابى بإشغال ما يوافق إجراءه من عمل المتاريس والتحصينات بجهة كفر الدوار ، فأرسل عرابى وجلب فلاحى المديريات المجاورة لكفر الدوار ، وباشرت أشغال التحصينات ، وخططتها . وباشرت أعمالها ، وركبت مدافعها ، ونظمت مزاغلها ، حتى جاءت محكمة التحصين من شاطئ ترعة المحمودية إلى شواطئ بحيرة مريوط ، وكانت على ثلاثة خطوط من خطوط المدافعة القوية . بحيث لا يمكن التغلب عليها ، ولا الوصول إليها ، وسددت ترعة المحمودية ، ومنعت المياه العذبة عن الإسكندرية . ورتبت على السد الطوابى بالمدافع ، حتى صار لا قدرة لعساكر الإنجليز على القرب منها ولا الوصول إليها » .

هذا هو الموقف الأول لهذا الرجل العسكرى النادر ، وقد عجز جيش الغزاة الإنجليز عن الاقتراب من كفر الدوار . وعُزلوا مع الخديوى توفيق داخل الإسكندرية التى خلَت من سكانها ، ومنعت عنها المياه العذبة ، وأصبح من المستحيل تقدم الجيش البريطانى إلى القاهرة .

ثم اتجه بصر اللواء محمود فهمى باشا المهندس إلى الشرق .. إلى قناة السويس ، وطلب من عرابى باشا ردم القناة حتى لاتدخلها عساكر الإنجليز .

وهذا هو الموقف الثانى الذى لم يتحقق .

كتب محمود فهمى باشا فى مذكراته :

« قال لى عرابى » .

– الآن يقتضى مناظرة سعادتكم المواقع العسكرية ، وترتيب العساكر اللازمة للمحافظة عليها .

فركبت وابورًا مخصوصًا على السكة الحديد ، وتوجهت إلى رأس الوادى والإسماعيلية لحد السويس ، وكان عرابى قبل ذلك أرسل لوكيل الجهادية بترتيب آلاى تحت قيادة محمد عبيد ، وإرساله إلى جهة رأس الوادى ، وأمر بوضع أورطة منه فى محطة نفيشة بجوار الإسماعيلية لأجل المحافظة عليها ، ولما قربت أنا من السويس وجدت محافظها هرب منها ، وانحاز وكيلها إلى المراكب الإنجليزية . واحتلتها العساكر الإنجليزية ونشروا فيها إعلانات بأنهم يحاربون من أجل سلطة الخديوى توفيق باشا كل من لم يكن منقادًا لأوامره ، وكذا محافظ بورسعيد وقنال السويس ترك وظيفته وانحاز إلى الأسطول البريطانى ، واحتلت عساكر الإنجليز بورسعيد ، وتقابلت فى الإسماعيلية مع الموسيو ديليسبس ، وأخبرته بحال القنال ، فقال :

– القنال فى عهدتى ، ولا يمكن لأى وابور أو سفينة حربية المرور من للقنال حسب نص المعاهدات الدولية ، وإن لاحظت أن أحد الوابورات الحربية حضر وأراد المرور من القنال ، يلزمنى فى هذا الوقت سده بتفريق بعض الشلوبات فيه ومنع المراكب الحربية من المرور فيه ، ولا يخشى عرابى من جهة القنال مطلقا » .

ثم روى محمود فهمى قصة الاستعدادات الحربية على الجهة الشرقية ، بعد أن عجز الإنجليز عن اقتحام استحكامات كفر الدوار ، ودارت معارك بين طلائع القوات البريطانية وبين الجيش المصرى بقيادة الفريق راشد باشا حسنى . وقام اللواء محمود فهمى بسد ترعة الإسماعيلية حتى لاتصل المياه العذبة إلى القوات الغازية .

ولكن الذى حدث فى الجبهة الشرقية قبل هزيمة التل الكبير كان مذهلا .

يقول محمود فهمى باشا :

• وردت قطارات السكة الحديد بجهة المسخوطة مشحونةً بالأنفار الفلاحين نحوا من ٤٠٠٠ نفر لأجل سد القناة وعمل الاستحكامات اللازمة .

• حضر الفريق راشد باشا حسنى بأورطتين واحدة من آلاى (على يوسف) وأخرى من آلاى (عبدالقادر عبدالصمد) وبطريتين طوبجية كروب ، وأخريين مدافع جبلى ، وهرب

(على يوسف) وتوجه إلى رأس الوادى ، وشرعت أنا فى عمل الاستحكامات ، وسددت ترعة الإسماعيلية من عند المسخوطة سدا محكمًا ، وخرجت العساكر الإنجليزية من الإسماعيلية ، واستمر راشد باشا حسنى معهم فى محاربة طول النهار بنيران الطوبجية فقط .

. . . . . .

هذا الموقف العسكرى للواء محمود فهمى باشا يحتاج إلى دراسة مستفيضة ، وقد انهزم الفريق راشد باشا حسنى بعد أن فر عنه عساكره الذين حرضهم (على يوسف) الخائن على عدم القتال ، ثم هرب هو نفسه ، كما أن الأربعة آلاف فلاح الذين أرسلهم عرابى لسد قناة السويس تبعثروا فى الصحراء .

وبقى اللواء محمود فهمى باشا وحده .. وهو يقول فى مذكراته :

« وفضلت أنا واقفًا فى الموقع وحدى مع خدامى ، ولا أعلم أين أتوجه ، وبينما أنا فى هذه الحالة إذ أحاط بى عساكر السوارى الإنجليز » .

وكان رئيس أركان حرب الجيش العرابى أول أسير يقع فى قبضة الإنجليز .

وكانت هذه هى مقدمات هزيمة الجيش العرابى فى معركة التل الكبير ، التى لم تطلق فيها رصاصة واحدة من جيش مصر .

لقد انتهى محمود فهمى المهندس عندما وقع فى أسر القوات البريطانية عند صحراء الإسماعيلية وانتهت معه الثورة العرابية كلها وقائدها أحمد عرابى . وسبب ذلك هو أن هذا الرجل كان العقل العسكرى للثورة ، وكان يملك قدرات باهرة فى فنون التكتيك العسكرى . وقد وضحت لك خططه العسكرية كما كتبها بنفسه .

لقد تأخر تنفيذ خطته فى سد قناة السويس ، لأن عرابى صدق كلام المسيو ديليسبس ، بل إن محمود فهمى نفسه قابل ديليسبس كما ذكرت لك ، وسمع رأيه ، ولو أن هذا الفرنسى المغامر الكاذب عند كلمته لاستطاع منع السفن الحربية البريطانية من دخول قناة السويس ، لو أغرق كراكةً واحدةً عند مدخل القناة فى الشمال وكراكة عند مدخلها الجنوبى .

بعد كل هذا أنا لم أقل لك : من هو اللواء محمود فهمى باشا .. المهندس ؟

والحقيقة أن مواقف هذا الرجل أسرتنى ومازالت تأسرنى ، فكان اهتمامى بمواقفه أهم من اهتمامى بتاريخ حياته ، وهو شخصية مثقفة تعرف قيمة العلم فى الحياة ، ومن أمثال هذه الشخصيات يجب أن نتعلم .

بسبب هزيمته عندما عجز عن سد قناة السويس فى سنة ١٨٨٢ ، تعلمنا فى سنة ١٩٥٦ كيف نسد منافذ قناة السويس فى وجه الأساطيل الغازية ، وكان هو المهندس العسكرى صاحب الفضل فى هذا التكتيك الحربى ، ولذلك فإن التاريخ الحضارى لمصر يصبح أحيانًا بعض المواقف العظيمة لأمثال هؤلاء العظماء من أبناء مصر .

ومهما كانت الأخطاء ، ومهما كانت المهاترات أو الخصومات والادعاءات ، فإن شيئًا واحدا يبقى دائما فى ضميرنا ومشاعرنا وعقولنا وقلوبنا وهو مصر . وقيمتها الحضارية التى يمثلها رجال عظماء من أمثال محمود فهمى باشا المهندس .

كان محمود فهمى باشا المهندس أحب أحباب عرابى قبل الهزيمة .. ثم أصبح أعدى أعدائه حتى فى المنفى بعد الهزيمة .. وكان يبتعد عن زعيمه ، ويشنع عليه ، ويوجه إليه اتهامات تافهة ، بل إنه كان يعارضه ويعارض كل زعماء الثورة العرابية من رفاقه فى السلاح ، وعندما قرر الأطباء الإنجليز أن جو جزيرة سيلان يضر بصحتهم جميعًا ، كان هو الوحيد الذى قال إن جو هذه الجزيرة يناسبه ولا يضر بصحته ، حتى مات هناك فى منفاه بسبب عناده ، والأعمار بيد الله ولكل أجل كتاب .. ولا اعتراض .

لقد رمى محمود فهمى باشا المهندس زعيمه أحمد عرابى باشا بكل النقائص بعد سقوط الثورة العرابية ، مع أنه اعترف فى مذكراته الشخصية بمدى الاحترام الذى كان زعيم الثورة يقدمه إليه ، حتى أنه كان لايتحدث إليه إلا بلقب : سعادتك. وهو لقب الباشوية .

بل إن عرابى باشا كان يمنحه كل الإمكانات والتسهيلات لتحقيق أهدافه العسكرية ، مما يدل على تقدير زعيم الثورة لواحد من أهم زعمائها العلماء المثقفين .

وفى اللحظات الأخيرة مع خداع ديليسبس الذى كان من أخطر أسباب سقوط الثورة العرابية ، أرسل عرابى باشا أربعة آلاف نفر فى قطارات السكك الحديد لسد قناة السويس إلى اللواء محمود فهمى باشا الذى كان قد قابل ديليسبس من قبل ، وخدع بأقواله قبل أن يخدع عرابى باشا .

والسؤال الحائر الذى يحيرنى هو :

– من كان سبب سقوط الثورة العرابية ؟

لقد وجه اللواء محمود فهمى المهندس الاتهام إلى زعيمه القائد أحمد عرابى ، ولكنه فى مذكراته لاينفى عن نفسه تهمة الاشتراك فى أسباب هزيمة التل الكبير التى أدت إلى الاحتلال

البريطانى لمصر. بل إن محمود فهمى المهندس كان هو الضابط العظيم الذى قابل فرديناند ديليسبس ، وتحدث عن اقتحام السفن الحربية للأسطول البريطانى لقناة السويس .

ولكننا بعد مائة سنة من الثورة العرابية لانتحدث عن الاتهامات ، فقد كانت لها فى وقتها وفى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر ظروف نفسية خاصة ، لم تترك الفرصة للدارسين والباحثين والمؤرخين لمحاولة معرفة الحقائق .. وويل للمهزوم . وعندنا فى مصر مثل يقول :

– إذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها .

وقد وضح اللواء محمود فهمى رئيس أركان حرب القوات العرابية ظروف الهزيمة قبل أن تصل قوات الجيش البريطانى إلى التل الكبير ، وكان قد وقع فى الأسر قبل المعركة المباغتة التى لم تدر رحاها ، ويمكن تلخيص ذلك فى نقطتين :

* تأخر اللواء محمود فهمى فى سدّ قناة السويس ، فقد وصل الأربعة آلاف نفر الذين بعث بهم عرابى للقيام بهذه المهمة بعد أن وصلت طلائع المراكب الحربية الإنجليزية إلى الإسماعيلية بعد أن سيطرت على بورسعيد شمالاً والسويس جنوبًا . وقد حدث هذا التأخير بسبب خداع ديليسبس ، لا بسبب جهل عرابى أو اللواء أركان حرب محمود فهمى المهندس ، كما زعم المرجفون الذين هاجموا أحمد عرابى وثورته .

* وجود بعض الضباط المتمصرين من الخونة فى صفوف الجيش العرابى وعلى رأسهم (على يوسف) الذى تنبه له اللواء محمود فهمى المهندس ، وقال فى مذكراته إنه هرب من صفوف الجيش ، ولولا أسر اللواء محمود فهمى ما استطاع هذا الخائن القيام بدوره الخسيس .

لقد شغلتنا مواقف اللواء محمود فهمى المهندس وشخصيته عن التعرف على تاريخ حياته ونشأته لأن هذا الرجل بالذات يمثل الفكر العسكرى للثورة العرابية ، وهو الذى وضع خطط الدفاع عن مصر فى وجه الغزو البريطانى ، وقد نجحت استحكاماته فى كفر الدوار كما قلت لك فى صد الغزاة ، ولو أنه أتم خطته فى قناة السويس لتغير وجه التاريخ ، ولكن هذا العمل لم يتم بسبب التوانى والتأخير فى تنفيذ الخطة العسكرية المرسومة مما أدى إلى الهزيمة .

ولعلك تريد التعرف على هذه الشخصية المصرية النادرة بعد أن عرفت بعض مواقفها . وأحب أن أقول لك إن الهزيمة فى المعارك الحربية لاتسقط شخصيات القادة ؛ فقد انهزم بونابرت فى معركة ووترلو .. وانهزم روميل فى معركة العلمين .. والشعوب القادرة تدرس أسباب هذه الهزائم حتى لاتتكرر ، وهذا هو ما حدث فى سنة ١٩٥٦ عندما تعرضت مصر

للعدوان الثلاثى فاستفادت من هزيمة عرابى فى التل الكبير ، ونفذت خطة محمود فهمى فى سد قناة السويس كما ذكرت لك .

ولكن من هو محمود فهمى ؟

فلاح عظيم من إحدى قرى بنى سويف .. يقول إن والده كان يملك بعضًا من الأطيان ، وإنه من عائلة فقيرة ، وقد تم اختياره عندما كان صبيا ليتعلم فى مدرسة بوشى التى أنشئت مع غيرها من المدارس فى عهد محمد على ، وكانوا يختارون من كل قرية ولدا واحدا ذكيا من بنيها ليتعلم فى هذه المدرسة ، وكان عمره خمس سنوات .

وكان اختيار هؤلاء الأولاد الصغار يتم بدقة بالغة ، ولعله من التواضع أن يقول إنه من عائلة فقيرة مع أن والده كان من أصحاب الأطيان ، ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم فى المدرسة التجهيزية التى كان مقرها مع مدرسة الألسن فى قصر الألفى بالأزبكية ، ثم ألحق بمدرسة المهندسخانة فى بولاق ، وتخرج فيها . وعين مدرسًا بالمدرسة الحربية الهندسية لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية . واستمر يعمل بالتدريس فى المدارس العسكرية المختلفة ، وتخصص فى علم الاستحكامات العسكرية . حتى عين باشمهندس القلاع شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى « أبو قير » إلى رشيد إلى البرلس ، وأنشأ سبع عشرة قلعة .

وظل محمود فهمى الذى حمل لقب المهندس يعمل فى الجيش ، فكان أركان حرب الفرقة المصرية فى حروب العرب والجبل الأسود .

وبعد هذه الحرب تقلد الوظائف الرفيعة ، فكان وكيل محافظة القاهرة ، وباشمهندس عموم الاستحكامات المصرية ، ثم وزيرا للأشغال فى وزارة الثورة العرابية التى تولاها محمود سامى البارودى .

وخلال الحرب العرابية ظل محمود فهمى باشا باشمهندس الاستحكامات العسكرية وكان هو المهندس العسكرى الوحيد بين قواد الجيش العرابى ، كما كان المسئول الأول عن الخطط والتكتيك العسكرى كما قلت لك فى البداية . وقد وضع الخطط المحكمة التى تدل على قدراته الظاهرة والباهرة فى هذا الفن .

وعندما حدثت الهزيمة ، وسقطت الثورة العرابية ، كان أشد زعمائها حزنًا وأسى ، لأنه كان المهندس الذى رسم وخطط وعرف أنه يستطيع بخططه رد الغزاة ، ثم تبدد ذلك كله فى لحظة

واحدة ، ووجد نفسه وحيدًا على صهوة جواده وسط الصحراء ، ومن حوله عساكر الفرسان الإنجليز يقودونه إلى الأسر.

إن مذكرات محمود فهمى المهندس عن الثورة العرابية من أخطر المذكرات التى كتبت عن هذه الحقبة من تاريخ مصر ، وقد كتبت لك ملامحها الأساسية التى تعتبر وثيقة عَسكريةً هامة ، أكثر من اعتبارها وثيقة من وثائق التاريخ ، لأن أحداث الثورة العرابية ذاتها كتبت مرات عديدة ، ومازال بعض الكتّاب يتناولونها بالدراسة والبحث من كافة نواحيها ، ولكن الناحية العسكرية لم يتحدث عنها إلا هذا المهندس الفذ صاحب خطة الحرب التى نفذ نصفها ، ثم شاءت الأقدار ألا ينفذ النصف الآخر .. وكان على وشك تنفيذها .. قاب قوسين أو أدنى .

تلك إرادة الله .. ولا راد لقضائه .

obeikandl.com